٣٢ القاضى بكار بن قتيبة عادل فى زمن الظلم

كان من العلماء والمحدِّثين والقراء، وكان من أبناء الطبقة الرابعة فى الحديث، وكان يحكم بين الناس بمذهب أبى حنيفة رضى الله عنه، وكان إذا فرغ من الحكم خلا بنفسه وعرض عليها جميع ما كان يحكم به ويبكى ويقول منتحباً: «يا بكَّار قَدِمَ إليك رجلان، حكمت بينهما فما جوابك غداً إذا وقفت بين يدى الله سبحانه وتعالى؟».

ذلك هو القاضى بكَّار بن قتيبة، حفيد مولى رسول الله ﷺ الحارث بن مخلدة، رضى الله عنه.

ولد هذا الرجل الصالح وعاش بالبصرة فى العراق، ولم يغادرها حتى جاء إلى الفسطاط بمصر ليتولى منصب قاضى قضاة مصر فى سنة ست وأربعين ومائتين للهجرة. وليقضى فيها بقيه سنوات عمره حتى يتوفى فى سنة سبعين ومائتين للهجرة ٢٧٠ هـ.

لكن كيف جاء بكَّار بن قتيبة إلى مصر؟ وكيف تولى منصب قاضى قضاتها؟ إن لذلك قصة طريفة يحدثنا بها القضاعى فى كتابه «ترتيب الزيارة» حيث يذكر أن الخليفة العباسى المتوكل كان يفكر فيمَنْ يوليه منصب قاضى قضاة مصر، فاستشار عدداً من ثقات رجاله فى هذا الشأن.

فأجمعوا على أن يكون بكَّار بن قتيبة هو الرجل المناسب لهذا المنصب الحساس، ففى إمكانه أن يحكم بين الناس بالعدل، ولن تكون فى أحكامه أية شبهة.

والغريب أن يلاقى هذا الرأى من مستشارى المتوكل ارتياحاً عنده، لما بلغه عن هذا الرجل الصالح من الزهد والورع، والعفة والنزاهة، والتقوى والصلاح. وغير ذلك من المقومات التى تؤهله لكى يتولى هذا العمل.

ويبدو أن سمعة بكار بن قتيبة قد كانت فوق الشبهات فى كل الأعمال التى تولاها من قبل، وإلاَّ فما معنى أن يلتقى رأى الخليفة مع رأى مستشاريه لو لم يكن كُلُّ ما يُقال عن هذاالرجل يشهد له بالعفة والاستقامة والورَع.

ولنستكمل بقية القصة لنرى جانباً من أخلاق هذا الرجل الصالح وزهده فى الحياة، وتواضعه وبساطته، مع علمه وفضله وفقهه الذى يجعله مؤهلا لكى يشغل أكبر مناصب الخلافة الإسلامية وأخطرها، ألا وهو قاضى القضاة.

وتقول البقية: إن الخليفة المتوكل بعثَ رسولاً إلى أرض البصرة حيث كان يقيم بكار بن قتيبة، فلما وصل هذا الرسول إلى المكان الذى يعيش فيه بكّار، سأل عنه، فقيل له: إنه مَضَى إلى الفرن ـ واندهش مبعوث الخليفة لِمَا سمع، إذْ كيف يحدث أن يكون رجل كهذا بمثل هذه البساطة والتواضع؟.. وانتظر قليلاً حتى أقبل من بعيد رجل على رأسه طبق من الخبز. وكانت الدهشة أكبر حين علم أنه بكّار بن قتيبة الذى جاء من أجله، فدنا منه وهو لا يصدق ما يرى، وقال: أنا رسول الخليفة المتوكل.. جئتك بتولية قاضى القضاة على مصر. وهذا كتاب الخليفة. وقبل أن يتسلم بكّار رسالة الخليفة قال لرسوله: «انتظر حتى أعود إليك، ثم تركه ودخل منزله بعد أن غاب لحظات، وأخذ منه الخطاب وفى الوقت نفسه دفع إليه رغيفين من الخبز، ولم يعلق أو ينطق بغير: «امضِ فى حفظ الله تعالى».

وتتضاعف دهشة رسول الخليفة، ويزداد حيرة من أمر هذا الرجل حتى أنه لم يرد إليه الرغيفين برغم عدم حاجته إليهما، وعاد إلى الخليفة المتوكل، وأخبره بكل ما رأى وكل ما حدث، وكيف لم ينطق أو يرد، وكيف أعطاه الرغيفين، وسأل الخليفة رسوله: «وما الذى صنعته بالرغيفين؟». فأجاب: «فرطت فى أحدهما وجئت بالآخر». فقال الخليفة: «ائتنى به». وأعطاه مائة دينار، وقال: «لو جئت بالآخر لأعطيتك مائة أخرى!».

وكما يذكر القضاعى: «وأخذ الخليفة هذا الرغيف وصنع منه أدوية وأكحالاً استخدمها فى شفاء بعض الأمراض!؟». ولم يقدم القضاعى تفسيراً لذلك. أو ما يجعل العقل يصدق هذا الجزء من القصة. إذ كيف يتحول رغيف إلى دواء، والأكثر أن يكون فيه الشفاء؟

ويصل القاضى بكّار بن قتيبة إلى مصر، ويشتهر فيها بالتقوى والورع والزهد، حتى قيل إن مَنْ كان يمر على دار هذا القاضى يجده يصلى، وكلما فرغ من صلاته كان يبكى ويردد الآية الكريمة: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾[1].

ويشتهر أيضا بالتقشف فى ملبسه ومأكله، والبساطة والتواضع فى أسلوبه وتعاملاته، وبالعدل والحق فى أحكامه وقضائه. وقيل عنه إنه كان حريصاً ألاَّ تشوب أحكامه شائبة، حتى وصل الأمر به إلى حد التزمت فى قبول شهادة الشهود.

وكثيراً ما كان القاضى «بكّار» يقف من المتقاضين موقف الواعظ المرشد. ومن ذلك ما يقال أنه دخل إليه رجلان يختصمان، أحدهما والد الآخر، فنظر إليهما وقال شعراً:

تَعاطَيْتُما ثوبَ العقوق كلاكما أبٌ غير برٍّ وابنه غيرُ واصِلِ

وإلى جانب دوره العظيم فى القضاء. فقد أسهم فى الأحداث السياسية التى وقعت بمصر في زمانه، خصوصا أن هذه الفترة التي تواجد فيها بمصر. مثلت مرحلة انتقالية بين الدولة العباسية والدولة الطولونية، فلم يقبل أن يوافق أحمد بن طولون على ما يريد، مما أودَى به ـ وهو قاضى القضاة ـ إلى السجن مدى الحياة.

ولأن القاضى بكّار كان زاهداً متقشفا بسيطاً على مارأينا، فإنه لم يكن في حاجة إلي الراتب الذي يتقاضاه فكان يوزعه عن آخره. ولا يحتفظ منه إلا بالقدر اليسير الذى يكفى سد رمقه، وأما الجوائز والمبالغ التى كان يرسلها إليه أحمد بن ابن طولون فقد احتفظ بها كما هى سالمة غير منقوصة. حتى إذا جرت بينهما

(١) سورة المعارج ـ الآيتان: ١٥، ١٦.

الخصومة، قاله له طولون: «وأين جوائزى التى كنت أرسلها إليك؟» فقال القاضى بكار: «فى المكان الذى كان يضعها فيه رسولك فابعثه ليأخذها!!». ثم قرأ القاضى بكار قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1].

ومن عجيب الأمر أن يذهب رسول ابن طولون إلى دار القاضى بكار ويعود بهذه الجوائز. التى لم يمسسها أحد. ويردها لصاحبها ابن طولون.

كان هدف القاضى بكار من كل ذلك أن يجعل النزاهة والزهد والترفع حتى عن أعطيات وجوائز من بيت السلطان.. مبادئ وسلوكيات يجب أن يتبعها القاضى فى حياته، حتى لا يكون فى حكمه تأثير من ولىٍّ الأمر.

وهكذا استمر القاضى بكار بن قتيبة طوال حياته، مبعداً نفسه عن كل ما يشين أحكامه حتى توفى بمصر، ودُفن فى الحومة التى دفن فيها جده الحارث بن مخلدة مولى رسول الله ﷺ حيث يقع ضريحه قريبا من مسجد عقبة بن عامر الجهنى بقرافة الإمام الليث بالقاهرة.

* * *

(١) سورة آل عمران ـ الآية ٧٧.